مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية عدد (6) لعام 1417 هـ 1996 م عدد خاص بندوة التعريب وصلته بشخصيتنا الوطنية والقومية

التعريب والتطور اللغوي "تجربة الطهطاوي مُنطلقاً"

د. علي نجيب إبراهيم*

1- الغاية من البحث:

اللغة العربية لغة قديمة مرت عبر تاريخها الطويل بأطوار من الحركة والسكون عكست ازدهار الفكر العربي وتخلُّفه. وإذا كان التغيير نزوعاً طبيعياً في الظاهرة اللغوية، ودليلاً على نسبيتها وخضوعها، كأي كائن حي، بقيود الزمان والمكان[1]، فإن حركة اللغة لا تُحَسُّ بالقدر نفسه في المراحل التاريخية المختلفة. ومن الثابت أنّ حركة اللغة لا تتسارع إلا عندما تواجه الضغط الحضاري، وتستجيب لضروراته بتفاعلها مع اللغات والثقافات المغايرة، وبتمثُّلها لمعطياتها كافةً. وهذا ما شهدته اللغة العربية بعد الإسلام، وفي فجر النهضة الحديثة، وما تزالُ تشهده حتى الآن. والباحثون -على الأغلب- متفقون على أن اللغة العربية أثبتت قدرتها على استيعاب العلوم والفنون والآداب[2]، وبالتالي فهي قادرة في عصرنا على مواكبة الحداثة وما بعد الحداثة. وهذا يعني أنها لغة قابلة للتطوُّر والتطوير، والتعريب هو نسْغ حياتها الدائم. ومن ثمَّ صار مشروعاً للنهضة العربية تُناط به هوية العرب وفكرهم وثقافتهم وانتماؤهم أيضاً[3]. ومنذ بداية القرن ألحت حتمية أن تقوم على هذا المشروع مؤسسات عربية[4] تنسق جهود المعرِّبين في البلدين العربية، وتضع الخطط القريبة والبعيدة الكفيلة بإنجاح

---

* الدكتور علي نجيب إبراهيم مدرس في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة تشرين اللاذقية - سورية.

[1] انظر: د. المسدي (عبد السلام)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا - 1981، ص.ص90-93.

[2] نكاد نجد هذا الكلام عند الباحثين في التعريب جميعاً. انظر مثلاً: مجلة "المعرفة"، دمشق، وزارة الثقافة، تحقيق في موضوع تدريس العلوم باللغة العربية، وخصوصاً الأعداد:53 (تموز 1966)، 55 (أيلول1966)، 60 (شباط 1967)، وانظر: أعمال الندوة السنوية لتعريب التعليم العالي في الجامعات العربية التي عقدها المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق مابين 18-1995/12/20، كلمة د.غدير زيزفون مدير المركز، ص 223.

[3] انظر: د.أنيس (إبراهيم)، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، القاهرة 1970، ص.ص 7،8. حيث يرى أنّ اللغة المشتركة للشعب وتنميتها ونشرها خير ضمان لكل قومية.

[4] كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمراكز التابعة لها: مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي (الرباط)، والمركز العربي في دمشق.

المشروع على الأصعدة التقنية والنظرية والتطبيقية.

إلا أن ما ينبغي إدراكه من جوانب العلاقة بين التعريب والتطور اللغوي هو خضوع التعريب لقوانين تطور اللغة ذاتها رغم دوره الحاسم في هذا التطوُّر. فكيف يمكن توضيح ذلك، وما أهمية وجدواه في مجال التعريب؟

للإجابة على هذين السؤالين سنختبر مفهوم التعريب وروابطه مع مستويات التعبير التي يُتيحها نظام اللغة العربية، وسنبيِّن، من بعد، كيف تستدعي اللغة ضرورة تطوير التعريب مع كونه وسيلة أولى من وسائل تطويرها، كما تستدعي تأليف موسوعة معجمية عربية عمادها المنهجي قانون التطوُّر اللغوي. وسوف نشفع نقاشنا كله بأمثلة مناسبة مركزين على المشروع التعريبي الأول ومعالمه التي تبدّت في كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي.

2- مفهوم االتعريب:

يلاحظ أن المصطلح المُعجمي للتعريب يدلُّ على معنىً خاص؛ فالمعرَّب، وفق هذا المصطلح "هو اللفظ الأجنبي الذي غيَّره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب"[1]. بينما يأخذ المفهوم دلالة أشمل يُعرَّف التعريب بموجبها أنه "التعبير عن الفنّ والفكر والتقنية باللغة العربية، بعد أن يكون استيعابها قد تمَّ في لغة المصدر[2]. وهنا ستدخل الترجمة لتخلق التباساً يتعلّق بشرط الاستيعاب؛ إذ إنَّ المترجم الحقيقي هو من يُلمُّ باللغتين المترجَم عنها والمترجَم إليها. وفي هذه الحال لن يقلل وفاؤه للنصّ الأصلي من وضوح ترجمته، ودقة أدائها للمعنى. غير أن بعض الاختصاصات الدقيقة في العلوم العصرية المستجدة تجعل التعبير عن مصطلحاتها باللغة العربية أمراً متعذراً. وحينئذٍ يتوقف دور المترجم ويبدأ دور المعّرب، وعلى حين يؤدي الدور الأول بنقل المعنى، يستلزم الثاني عملية ابتكار لغوي تتواءم مع بناء اللغة العربية وصحة اشتقاقاتها وصوابِ صِيَغِها. فالمعرِّب مفكِّر مبدع وليس مجرد مترجم، والاستيعاب مسلَّمة لا تظهر نتائجها مع التطور اللغوي كما سوف نرى ولعلّ من الجائز الآن أن نتساءل عن إمكانيات الابتكار التي يوفرها كل من اللفظ المعرب والاشتقاق اللغوي وما القواعد الواجب إتباعها لاستغلال هذه الإمكانيات على نحو أمثل؟ وبعبارة أدق: هل يصلح اللفظ المعرَّب أساساً للّفظ المحدث الذي يطلقه المعجم الوسيط على "ما استعمله المُحْدَثون وشاع في لغة الحياة العامة"[3]؟

سنؤسّس نقاشنا على لفظتين معرَّبتين هما: "أستاذ" و "دُبُّوس". واللفظان

[1] المعجم الوسيط: الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة، ص 16.

[2] د.نزار الدين، عملية التعريب: الأساليب والمشاكل والحلول، مجلة "الوحدة"، العددان 62/61 -تشرين2، 1989، ص 33.

[3] نفسه، ص 16.

مستعملان في أحاديثنا اليومية، ولكل منهما معناه الخاص: الأستاذ في الأصل: المعلّم. ثم أطلق على الماهر في الصناعة يعلمها غيره. وخُصِّص أكثر بلقب علمي عالٍ في الجامعة. وجمعه أساتذة وأساتيذ[1]. والدبوس: عمود على شكل هراوة مُدَمْلكةِ الرأس. ومعناه المحدث: أداة من معدن على هيئة المسمار الصغير[2]. وله معنى مولّد* يدل عليه الفعل "دبَّس" في قولنا: دبَّس الخُفَّ: ودبس الورقة ونحوها: شبكها بدبوس[3]. فما الذي أجاز اشتقاق فعل من "دبوس" ولم يُجِزْ اشتقاق فعل من "أستاذ"، مع أنه يُقال: أستذ، وتأستذ، ومع أن التطور اللغوي[4]_لا المعجمي_ يُشير -في اللغة الدارجة على الأقل- إلى سياقات عديدة لهذين الفعلين منها ما يقابل تلمذ وتتلمذ، ومنها ما يوحي بالسخرية؟

وفي الواقع فإن التركيز على تصريف الألفاظ المعرّبة، والاشتقاق منها نابع من شاغل المثقفين العرب المعاصرين الذين يحاولون الإفادة من خصائص لُغَتهم بغية تحديث خطابها المعرفي والعلمي. وأولى هذه الخصائص اشتقاق أفعال رباعية أو خماسية من ألفاظ معربة، وتصريفها: أدلج يؤدلج أدلجة، والأدْلُوجة والأدلوجا (والأدْلُوجية) من الإيديولوجيا[5] وبَقْرَط يُبقرِط من البيروقراطية[6]. ونمذج يُنمذج نمذجةً من النموذج[7](اللفظ المعرب عن "نموذهْ" بالفارسية)[8]. ويقاس على ذلك فعل "دَمَقْرَط" من الديمقراطية. كما تقاس عليه اشتقاقات محدثة من ألفاظٍ عربية تحتاج إلى رصدٍ موسَّع لمعرفة ما أقرَّته مجامع اللغة العربية منها. مثل: أنْسَن[9]أنسةً Humaniser, Humanisation من "إنسان"، وبَنْيَن[10]بنينةً Structurer,

---

[1] نفسه، ص 17.

[2] نفسه، ص 17

* المولد هو اللفظ الذي استعمله الناس قديماً بعد عصر الرواية. انظر: المعجم الوسيط، نفسه ص 16.

[3] نفسه، ص 270

[4] تجدر الإشارة هنا إلى أنّ حركة التطور اللغوي تسبق حركة التأليف المعجمي؛ لذلك يتحتم أن تجدّد المعاجم باستمرار لمواكبة ما يفرزه تطور اللغة من مستجدات.

[5] انظر: العُروي (عبد الله)، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1981، ص.ص 10-90. وانظر: د.لحمداني (حميد)، النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1990، ص.ص 13-44.

[6] حفيظ (عبد الوهاب)، حول الترجمة والتعريب والتغريب "مأساة المصطلح وفراغ المعنى"، مجلة "الوحدة"، العدد 62/61، نفسه، ص 81.

[7] انظر ريد بكير (هورست)، الانعكاس والفعل، ترجمة د.فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق 1977، ص.ص 23-33.

[8] المعجم الوسيط، نفسه، ص 956.

[9] انظر: استهلال خليل أحمد خليل لترجمة كتاب: جدلية الزمن لـ"غاستون باشلار"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1982، ص8. وانظر ثامر (فاضل)، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الرباط 1994، ص.ص 9و27.

[10] انظر يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص137

Stucturation من "بِنْيَة"، وأَدْلَنَ أَدْلَنة[1]، Sémantiser, Sémantisation من "دلالة"، وأسلب أسلبةً[2]Styliser, Stylisation من "أسلوب"...الخ.

وثاني خصائص اللغة العربية المستعان بها وسيلة اشتقاقية لإيجاد ألفاظ جديدة، النّحتُ الذي يمسح المجال للادخار اللغوي باختزال الجملة أو جزء من الجملة في كلمة واحدة كـ "بَسْمَلَ" و "حوقلَ". وللنحت في الكتب الثقافية والنقدية المعاصرة شكلان غالبان:

آ- نحت كلمة واحدة من كلمتين تقابلان كلمة أجنبية مركبة، كأن يُقال "الزَّمكان" مُقابل Espace-Temps أو مقابل Chronotope[3]، و"اجتمادي"[4]مقابل Socioéconomique، و "اجتماسي"[2] مقابل Sociopo-Litique. وقد يكون هذا الشكل من النحت مفروضاً بإلحاح في الاختصاصات العلمية الدقيقة، على نحو ما نجد فيما اقترحه د.هشام ناصيف مكي لتعريب مصطلح Telematic إذ يقول: "ومن أجل تقريب معنى هذا المصطلح من القارئ العربي قمتُ بنحتِ كلمة "البَرْقمة" من الكلمتين "بَرْق" و "معلوماتية" اللتين تقابلان الكلمتين المعنيَّتين في اللغات الأوروبية. وهي كلمة سهلة النطق ومستساغة"[5]كذلك عرَّب مصطلح Télétel بالكلمة المنحوتة من الهاتف والتلفزيون هي "الهتفزة"، وعرّفها بأنها وسيلة اتصالات حديثة للمراسلات والاستعلامات عبر الشاشة التلفازية"[6].

ب- نحت كلمة معرّبة نصفها أجنبي ونصفها عربي كـ"السوسيونقدية"[7]، و "الاتنوأدبي[1] والسوسيونصيّة[8]، و "الآني-اقتصادية[9]" و "الآني-وضعوية[3]. ويشيع، في السنوات الأخيرة، استخدام مصطلح "ميتالغوي[10]" و "ميتالغة[4]" أيضاً.

وفي الخطاب العادي والثقافي والعلمي العربي حضور ظاهرة للألفاظ والمصطلحات

---

[1] انظر: بارت (رولان)، مبادئ في علم الأدلة، تعريب محمد البكري، ط1، دار الحوار، اللاذقية 1987، ص147.

[2] انظر سيان (ج.ل)، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة محمد جمُّول، وزارة الثقافة، دمشق 1995، ص309

[3] انظر: باختين (ميخائيل)، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاّق، وزارة الثقافة، دمشق 1990، ص.ص 95 و116-230.

[4] انظر: حول الترجمة والتعريب والتغريب، نفسه، ص82.

[5] د.مكي (هشام ناصيف)، البرقمة والهتفزة، مجلة "اللسان العربي"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، العدد36،1992،ص189.

[6] المرجع السابق، ص190.

[7] انظر: د.علوش (سعيد)، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1985، ص.ص137 و 127 والمصطلحان بمقابلان للمصطلحاين الأجنبيين: Sociocritique و Sociolittéraire

[8] Sociotextuel انظر: انفتاح النص الروائي، نفسه، ص.ص131-151.

[9] Antiécomisme، Antirelativisme، انظر: مرقص (الياس)، المذهب الجدلي والمذهب الوضعي (بلا تاريخ)، توزيع دار السؤال للنشر، ص.ص 11،12.

[10] انظر: د.فضل (صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، "عالم المعرفة" عدد164، الكويت، آب 1992 ص67.

المعرَّبة القديمة والحديثة[1]، وحضورها بحدِّ ذاته لا يدعو إلى التفكير بما سوف تصير إليه اللغة العربية، فيما لو اتسع انفتاحها، بعد مائة عام. والحال أن هناك كثيرين يجاهرون بموقفهم المعارض للخطاب اللغوي العربي الحديث الهجين الذي لا تتقبله الأذواق، ولا يتيسّر للقراء كلهم. لكن ما يدعو إلى التفكير هو مدى المقدرة على تفسير ما تقتضيه اللغة من لزوم إغنائها باستعارة ألفاظ أجنبية تناسب حاجة المجتمع. فبدل الانكباب على النظر في كل لفظٍ لمعرفة ما إذا كان سيؤثر في جمال اللغة العربية، ينبغي أن تُقَرَّ الحاجة إليه حتى يتمكن من التواصل مع العالم في عصر تتراكم كشوفاته واقتراحاته يوماً بعد يوم. ومن العبث البحث عن منطق ثابت يحطم ما يطرأ أو سوف يطرأ على ألفاظ اللغة المعربة وغير المعربة من القِدَم والتجدد، أو من الاندثار والانبعاث. ذلك أن التطور اللغوي -بوصفه مظهراً من مظاهر التطور الفكري والاجتماعي كما ألمحنا آنفاً- هو الذي يحدد أسباب اندغام بعض الألفاظ المعربة في اللغة، وانحسار بعضها، وموت الباقي. وهو الذي يلقي الضوء على الأبعاد التاريخية والحضارية للمعرَّب، مع ما يتعلق بها من سياقات خاصة وعامة. وأغلب الظن أن العرب لم يستعينوا بكلمة "إبزيم[2]" الفارسية لتسمية "حلقة النطاق" إلا لأنهم عرفوا -نتيجة احتكاكهم بالفُرس- شيئاً تدل عليه الكلمة، ويختلف عن الشيء الذي تدل عليه كلمة "حلقة" أو كلمة "زردة". ولولا أنهم وجدوا في كلمة "أبْزَن[3]" دلالة على شيء لم يعرفوه من قبل، لما استخدموها وتركوا كلمة "مغطِس[4]" التي انبعثت من جديد لتقابل الكلمة الفرنسية "Baignoire". وما كانت الكلمة العربية لتنبعث بمعزلٍ عن السياق الذي تطلّب وجودها. واللافت للانتباه أن بعض الألفاظ المعربة يتعايش مع بعض الألفاظ العربية القريبة من مدلوله دون أن يتعدى أحدهما على سياق الآخر. ومثال ذلك لفظ "إبليس[5]" ولفظ "شيطان". فاللفظ الأول معرّب وجمعه "أباليس"، ومعناه محصور بالدلالة على "رأس الشياطين" الذي تمرَّد على أمر الله. لذلك لم يُشتقّ منه فعل "أبلس" ولا مصدر "أبلسة". بينما تقول العرب: شيطن وتشيطن أي صار كالشيطان أو فعل فعله[6]. وفي العصر الحديث،

---

[1] عدد هذه الألفاظ لا يحصى، منها على سبيل المثال لا الحصر: الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والفيزيولوجيا، والفانتازيا، والأتوماتيك، والأوبّرا، والموتاج، والدوبلاج، والريبورتاج، والصالون والاكسسوار، والسينما، والدراما، والميلودراما، والميتافيزقيا، والستيريو، والفديو، والأوتوستراد، والفيللا...الخ.

[2] الإبزيم: عروة معدنية في أحد طرفيها لسان، توصل بالحزام ونحوه، لتثبيت طرف الحزام الآخر على الوسط، انظر: المعجم الوسيط، نفسه، ص2.

[3] الأبزن: حوض من المعدن ونحوه للاستحمام (ج) أبازِن، الوسيط، ص2.

[4] انظر: المعجم الوسيط، نفسه، ص655.

[5] انظر: المعجم الوسيط، نفسه، ص3.

[6] المعجم الوسيط، نفسه، ص483.

وتحديداً بعد تأسيس الأمم المتحدة، عُرِّبت كلمة "الفيتو[1]" بقرار من مجمع اللغة، رغم وجود كلمة "النقض" واشتقاقاتها. وشيئاً فشيئاً تقلّص مفهوم "الفيتو" ليقتصر على: "حق المنع، وهو الآن يقترن بحق المنع الذي خوّله ميثاق الأمم المتحدة كلاً من الدول الخمس صاحبة العضوية الدائمة في مجلس الأمن في وقف تنفيذ ما لا ترضاه من قرار المجلس المذكور[5]". وتطور مدلول كلمة النّقض ليشمل القضاء (الحكم المدني والحكم الجنائي)[2] ومؤسساته المحلية والدولية محكمة النقض، ومحكمة النقض الدولية.

نخلص مما سبق إلى أن غياب السياق العربي المعادل للسياق الأجنبي يُفضي إلى إدخال ألفاظ أجنبية في اللغة العربية وتوصيفها، في البداية على الأقل، أو تعريبها بما يقرب معناها إلى أذهان تجهل سياقها على غرار ما قام به "الطهطاوي" في مواجهته للحداثة الأوروبية جملة واحدة حينما لم يكن في مصر إلا قلّة قليلة من المتعلمين. وعلى أن الاستيعاب الأجدى لعملية التعريب هو استيعاب السياق، فإن مسألة التعبير باللغة العربية ستأتي بعد التعريب الأولي، وستطوره بفضل أسلوب أعمّ هو التعليم بمراحله المختلفة، وأهمها التعليم الجامعي والتعليم العالي. والمراحل المذكورة تلخّص مسار التعريب منذ بداية المشروع التنويري الذي تبناه الطهطاوي حتى الآن. وسنعمد في الفقرة الآتية إلى المرور السريع على بعض خصائص التعريب في كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، فعسى أن يساعد في إدراك أثر غياب السياق الحضاري وحضوره في التطور اللغوي واندفاع اللغة.

3- التعريب عند الطهطاوي ومواجهة السياقات الجديدة:

دعا الطهطاوي إلى ضرورة الإفادة من حضارة الفرنسيين البرّانية، وكان يعرف أنّ العلم وحده يُخرج المجتمع المصري من ظلام التخلف والجهل، إذ يقول في خطبة كتابه: "ومن المركوز في الأسماع في القديم والحديث[....] أن خير الأمور العلم، وأنه أهم كل مهمٍّ، وأن ثمرته في الدنيا والآخرة على صاحبه تعود، وأن فضله في كل زمان ومكان مشهود"[3]. وما كتابه، في الجوهر، سوى وصفٍ لإنجازات العلوم العربية التي

---

[1] المرجع نفسه، ص707.

[2] نفسه، ص947، والجدير بالذكر أن كلمة النقض تستخدم أحياناً مع كلمة "الفيتو"، وفي لغة وسائل الإعلام خاصة، حيث يُقال: استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حقّ النقض (الفيتو) بشأن كذا.... وهذا مظهر من مظاهر التعابش الذي ألمحنا إليه.

[3] الطهطاوي (رفاعة)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، الأعمال الكاملة، دراسة وتعليق محمد عمارة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973، ص10. وانظر: تخليص الإبريز بنصّه الكامل في كتاب "أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، دراسة وتعليق الدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974، ص140. وسوف نعتمد في توثيقنا هذه الطبعة.

اطّلع عليها خلال مكوثه في فرنسا. وفي وصفه ميلُ حثيث لنقل سياق ما يتحدث عنه دون أدنى تكلُّفٍ لغوي. وقد جهد في هذا المنحى لإيصال ما كان يريد إيصاله حتى لو اضطر إلى استخدام اللغة العامية مثلما نجد في كلامه عن رش شوارع باريس بالماء: "فإنهم يصنعون دِناً عظيماً ذا عجلات ويمشون العجلة بالخيل، ولهذا الدنّ بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقّوة عظيمة، وعزم سريع، فلا تزال العجلات ماشية، والبزابيز مفتوحة حتى ترشّ قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة"[1].

فالدنُّ يُقابل في أيامنا كلمة "صهريج" Citerne، والمقصود بكلمة بزابيز العامية، الحنفية أو الصُّنبور. وعلّة عدم استعماله لهذه الكلمات الفصيحة المستعملة حالياً أن سياقها مختلف، فالصهريج، في الأصل، حوض كبيرُ للماء[2]، والحوض لا يُحمل على عَجَلة، والصنبور في الإداوة يُشرَبُ منها[3]، والإداوة إناء صغير فيه الماء وليست دناً عظيماً[4]. إذاً كان لا بدَّ من أن تدخل هذه "الحِيَل" مصر حتى تسمى أسماء عربية بإحداث دلالات جديدة لألفاظ قديمة. وفي النص نفسه إفصاح عن هذه الفكرة، حيث يضيف الطهطاوي: "فمصرنا أولى بهذا لِغَلَبةِ حرّها"[5] وبعد عودته من فرنسا، وهو يكمل كتابه استدرك بعبارة: (قد صار الآن جُلُّ ذلك بمصر)[4].

ولعلّه كان يقدّر مستوى من يوجه إليهم كتابه ويعرف أن مداركهم لن تُلِمَّ بشيء منه إن ابتعد عن اللغة التي يفهمونها. وعلى كل حال كان الطهطاوي في ترجمته وتعريبه صاحب رؤية محددة تلاحق أصول الظواهر والعلوم، والمعاني الجوهرية في النصوص الفرنسية. ويطلعنا رأي أستاذه "مسيو جومار" على أسلوبه العام في الترجمة، بقوله عنه أن نجح في الامتحان: "وقد تخلص على وجهٍ حَسَن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير في معنى الأصل المُترجَم، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجازٍ آخر من غير خللٍ في المعنى المُراد.[...] وقد أعترض عليه [...] بأنه بعض الأحيان لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المُترجَم والمُترجَم عنه وأنه ربما كرر وربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة ولكن من غير أن يقع في الخلط، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلي[6]".

استناداً إلى هذه الرؤية يمكن أن نميِّز عدة وسائل سخرها الطهطاوي لترجمة ما رآه وما تعلمه، وهي وسائل متداخلة ومتكاملة نذكر منها:

---

[1] تخليص الإبريز، تحقيق د.حجازي، نفسه، ص205.

[2] المعجم الوسيط، نفسه، ص527.

[3] نفسه، ص524.

[4] نفسه، ص10.

[5] تخليص الإبريز، نفسه، ص502.

[6] نفسه، ص.ص340-341، ويلاحظ أن في رأي "جومار" إصابةً لِقَلْب مشكلة الترجمة، ومشكلة التعريب: الأمانة لمعنى النص الأصلي.

1- تعريب اللفظ الأجنبي وتصريفه، وتقديم عدة خيارات لنطقه بالعربية، وشرح وبيان أصله. مثال ذلك لفظ "أكاديمية" Académie الذي يجمعه على "أكاديميات" وورد عنه الآتي: "وقولنا أكاديمية أو أكدمة أو أقدمة هو لفظ مأخوذ من اسم مكان في مدينة أثينا، كان أفلاطون الحكيم يُعلّم فيه تلاميذه ومنه قيل لطائفة الفلاسفة القدماء الأكاديميون وكان يقال لهذا المكان أكدمة..."[1] وفوق ذلك يضع اللفظ في سياقه مبيِّناً مرتبته في تصنيف الهيئات العلمية، فهناك "الآنستيطيوت" Institut وهو اسم عام يشتمل على جميع اجتماع الأكدمات أي المجالس الخمس وهي: أكدمية اللغة الفرنساوية، وأكدمية العلوم الأدبية ومعرفة الأخبار والآثار وأكدمية الفلسفة"[2]. ودفعه حرصه على سياق التسميات المختلفة التي يحددها هذا اللفظ إلى تخصيص شرح خاص لـ"أكدمة الفرنسيس" L'academie Francaise مقترحاً ترجمتها بـ"ديوان العلوم"[4] المطابق في أيامنا لاسم "مَجْمَع".

2- تعريب الاسم الأجنبي وتصريفاته باللغة الفرنسية، واللغة العربية: "ويوجد في باريس أيضاً مكاتب تسمَّى "البنسيونات" Pension أو Pensionnat جَمْع بنسيون بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضمّ المثناة التحتية وسكون الواو[3]" ويتبع الطريقة نفسها في كثير من المواقع، كحديثه عن "الجرنالات[4]=الصُحف les journaux، و"السبكتاكلات[5]"=المسارح les spectacles.

3- الاقتصار في التعريب على السياق فقط دون اللفظ الأجنبي مثلما نجد في حديثه عن الإعلانات الدعائية Publicite`S: " وقد يطبع التاجر الذي يريد ترويج سلعته عدّة أوراق صغيرة ويرسلها مع خَدَم في سائر البيوت ولسائر المارِّين بالطرق ويفرِّقها عليهم مجاناً...."[6].

4- تعريب الألفاظ بتسمية وظيفتها، فصندوق البريد Boite Postale يأخذ تسمية "محل المكاتيب[7]، والمتاحف les musees تُسمّى بـ"خزائن المُسْتَغْرَبات[8]". ويعود سبب ذلك إلى غياب السياق الذي ذكرناه، والذي تعود إليه هذه المفردات.

5- التعريب من خلال استحضار السِّياق المقابل، وأكثر ما يرد استخدام هذه الطريقة في الحديث عن الدستور الفرنسي، وعن مفهوم Liberté الذي يحتل مركز الفكرة السياسية في "تخليص الإبريز". فلما لم

---

[1] تخليص الأبريز، نفسه، ص304.

[2] نفسه، ص.ص 303-304.

[3] نفسه، ص310.

[4] نفسه، ص310.

[5] نفسه، ص257 وما بعدها.

[6] نفسه، ص291

[7] نفسه، ص290.

[8] نفسه، ص301.

يكن في ذهن الطهطاوي معنى واضح لمصطلح "الحرية" يتجاوز الضد القانوني لوضع العبودية، ولما كانت كلمة "حرية" -كما يحلّل د.عزّت قرني[1]- لا تحمل الشحنة المتفجّرة للكلمة الفرنسية، جاء مصطلح "العدل والإنصاف[2]" وسيطاً بين الكلمتين الفرنسية والعربية. وغاية استحضار السياق مع ما يقتضيه من جهد تتلخّص في كون الطهطاوي مؤمناً بمشروع نقل ما يمكن أن يُغني المجتمع ويخرجه من حالة الانحدار. وفي هذا المنحى يمثّل الطهطاوي بالقياس إلى خير الدين التونسي[3]انتقالة من تصوّر ديني عام إلى تصوّر مدني حول طبيعة الاجتماع وأهدافه[4]. ونحن نرى أنّ في هذه الانتقالة إرهاصاً للتحول الفكري والاجتماعي في مصر وسائر بلاد العرب، حيث شرعت تسود مصطلحات سياسية غير معهودة كالأهالي، وأبناء الوطن، والرأي العمومي، وأعضاء الجمعية، والهيئة الاجتماعية[5]....الخ.

6- الإعراض عن التعريب والاكتفاء بوصف السياق الخارجي في المجالات التي يُقدِّر أن فائدتها غير مباشرة، فهو عندما يزور "بستان النباتات" Jardin des Plantes يلاحظ وجود أروقة فيها معادن ونفائس، ووجود الطبيعيات بمراتبها الثلاث ويقول: "ففيها كثير من الأشياء التي لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكة أو نباتها، وأحجارها [....] وفي بستان رواق يُسمّى رواق التشريح، وفيه جميع الموامي أي الجثث المحنطة....[6]".

إن وقفة مُتَأنّية مع كُتُبِ الطهطاوي المؤلّفة ومع ترجماته وترجمات تلامذته من بعده كفيلة بأن توفر لنا مادة غنية لدراسة كيفية تكوُّن المصطلح العربي الحديث والفكر المستعرب الحديث[7]، وكذلك لملاحظة تطوُّرها خلال قرن ونصف، وتأليف معجم اصطلاحي عام يشرح أوجه استخدام كل مصطلح بحسب الميادين التخصصية التي ينتمي إليها. حتى إن العربية تحتاج إلى معجم لغوي يُبنى على أساس التطور اللغوي وتحول الدلالة من الحسّي إلى المجرّد أو العكس، ومن العام إلى الخاص أو من الخاص إلى العام ومن الشيوع إلى الجمود. ولا بُدَّ للعمل المعجمي من فِرَق عمل تضمُّ المختصين واللغويين والتقنيين، كاللِجَان التابعة لمجمع اللغة العربية في القاهرة

---

[1] انظر: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، عالم المعرفة، الكويت، حزيران 1980، ص.ص28،29.

[2] تخليص الإبريز، نفسه، ص228.

[3] مع أن هدفهما واحد: نقل علوم الغرب وتأسيس المدارس الحديثة.

[4] انظر: د.قرني (عزّت)، الأمة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، مجلة عالم الفكر، مجلد 19، العدد الرابع، يناير -فبراير- مارس 1989، ص.ص224-245.

[5] نفسه، ص244.

[6] تخليص الإبريز، نفسه، ص302.

[7] انظر: د.قرني، الأمة والوطن والمواطن، نفسه، ص244.

وعددها خمس وعشرون لجنة، وتعميم نتائج عملها على الجامعات والمؤسسات العلمية العربية.

3-استنتاجات:

ليس التعريب، في ضوء التطور اللغوي، خطّة مرحلية تستقرُّ بمجرد تأمين حلول ما ينبثق عنها من مشكلات. بل هو مشروع دائم، لذلك ينبغي أن يمتلك منهجاً وتاريخاً. والمنهج يعني اعتماد العقل في دراسة حركة التعريب، وإعداد تصنيفاته باستقاء مادتها من الترجمات والمؤلفات في العلوم كافة، وكذلك في وضع المعايير الدقيقة التي تسهِّل تحديث اللغة ومصطلحاتها من دون التأثير السلبي في بنيانها الداخلي، وقوانينها الصرفية والاشتقاقية.

إن في خاصة الاشتقاق دليلاً على قابلية اللغة العربية للتطور، وعلى طاقاتها التوليدية الكامنة التي تنبّه إليها اللغويون العرب القدماء. وهذا ما يفسِّر كثرة المؤلّفات التي صنّفوها في الاشتقاق منذ بداية القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع، إذ بلغ عدد ما أُحصي منها سبعة وعشرين كتاباً[1]. لكن الحلقة الاشتقاقية للّفْظ (الفعل-اسم الفاعل-اسم المفعول-الصفة المشبَّهة....الخ) لا تكون مكتملة بالضرورة على الرغم من أن اكتمالها هو الغالب. فهناك أفعال تحلّ محلّ أفعال أخرى، وألفاظ تُهجَر وتخضع لاحتمالات التوليد الاشتقاقي. والجوهري في التعريب أن تُفتَح أبواب الاشتقاق دون قَسر اللغة على مالا تتقبّله؛ فما جدوى اشتقاق فعل "اجتماس" مثلاً من الكلمة المنحوتة "اجتماسي". وإذا كان بالإمكان أن يُقال: آلية عمل الجهاز العصبي، فماذا سَيُضيف اللفظ المعرب "فسلجة=آلية عمل[2]"، وهل نَعُدُّ دائرته الاشتقاقية (فسلج يُفسلج فسلجةً ومفسلج) أمراً مُلِحّاً؟

ربما كانت أسئلة اللغوي غير شرعية إن هي أغفلت الباحث المُختصّ وتقديراته، وحتى لو تحقّق التنسيق بينها، تظل الخطوة اللاحقة منوطة بالمعجم اللغوي العام الذي يجب أن يضم خانة للمعنى الاصطلاحي لكل لفظ كي يتسنى إدخال ما تُقِرُّه المجامع من مصطلحات مستجدة. وهنا تبرز مشكلة الكَمّ المترجم إلى اللغة العربية الذي يتطلب تصنيفاً ودراسة وإقراراً أو عدم إقرار. فإلى الآن -ومع التقدّم المطّرد للأسلوبية la stylistique- نقرأ في "المعجم الوسيط": "أَسْلَبَ الشجر ونحوه: ذهب حَمْلُه، وسقط وَرَقُه. وأسلب الثُّمام: أخرج خُوصَه. وأسلبتِ الحامل: أسقطت [.....] والأسلوب: الفنّ. يُقال:

[1] انظر: د.بوعناني (مختار)، المصطلح اللغوي من خلال عناوين الرسائل الجامعية في العالم العربي، مجلة "تجلّيات الحداثة"، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، العدد الثاني، يونيو 1993، ص.ص148-149.

[2] انظر: د.هلالي (صادق)، فسلجة الجهاز العصبي، جزآن، كليّة الطب، جامعة بغداد 1972.

أخذنا في أساليب من القول: فنون متنوعةٍ[1]". ولا إشارة إلى "الأسلوبية" و "أسلب" و "أسلبة". ونقرأ: "أدلج القوم: ساروا من أول الليل[2]"، ولا نجد أي شيء عن "الإيديولوجيا" وما اشتقه الدارسون من ألفاظ ذكرناها في الصفحات السابقة، ودَرَجَتْ كلياً أو جزئياً في الكتب السياسية والنقدية والفكرية والفلسفية. أهو مُشكِل الالتباس بين معنيي: أسلب الثوم، أو الشجر، وأسلب الكاتب واقعه، وبين أدلج القوم، وأدلج الفيلسوف خطابه، وما الرابط بين اللبس وانتقال المعنى من جهة، وبينهما وبين الاشتقاق وحدوده من جهة ثانية؟ ويتطور التساؤل ليلامس العلاقة الموجودة أو التي يُفترَض أن توجد بين المعجم العام والمعجم الاصطلاحي؛ فأي المعجمين ينهل من الآخر، وهل هناك أسبقية لأحدهما على الآخر؟

لقد كثُرت المعاجم العربية المتخصصة في العلوم الزراعية والطب والتنمية الاجتماعية والسياسية، والطاقة، والطيران المدني، والعلوم العسكرية، والقانون، والآثار، والرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها[3]. مما يدلُّ على أن مسيرة التعريب مستمرَّة، ونحن نرى أن ضمان استمرارها وفاعلية نتائجها لا يتحقَّقان إلا بتأليف موسوعة معجمية عربية تغطي حاجة الباحثين والمعربين والمثقفين معاً، وتساعد على توحيد المصطلحات في الوطن العربي وعلى انتشارها. والقاعدة الأولى لتأليف موسوعة كهذه هي معرفة اتجاهات التطور اللغوي وانتقال دلالات الألفاظ عبر العصور، وتغيُّرِها الطارئ نتيجة التيارات الحديثة الوافدة. وهكذا تتولَّد الحركة المتسارعة التي يُطمَح إليها في عملية التعريب، وهكذا يتّصل ماضي اللغة بحاضرها ومستقبلها، وتتكشَّف أوجه المشروع الحداثي في نصوص الطهطاوي ومن جاء بعده. لأن فائدة هذه النصوص تبقى منقوصة إن اقتُصر على تحقيقها ودراستها دون تصنيف مصطلحاتها وإدخالها في المعاجم، وفي الموسوعة المعجمية المقترحة. وما اتصال تاريخ اللغة العربية في حقيقته سوى التعبير عن الاتصال الثقافي الذي قد تكون الموسوعة نافذة واسعة من نوافذه المفتوحة على الأفق القومي المروم تسعى إليه أجيالنا المتلاحقة.

[1] ص292.

[2] ص292.

[3] انظر: الخوري (شحادة)، المعاجم المتخصصة ودورها في نشر المصطلح وخدمة التعريب، الندوة السنوية لتعريب التعليم العالي في الجامعات العربية، نفسه،ص.ص125-138.